يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطم الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضى حتى وجدت فى وجهى أحد العساكر يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلىّ للتوقيع . فوضعت إمضائى دون وعى على هذه الأوراق التى ليس لها آخر . وإمضائى الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمى . فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطاً أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما إن فرغت من ذلك وقد تصبب منى العرق حتى سمعت من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام :

— التحقيق منتظر فوق فى قضية ضرب النار !

ولكن للقوة الآدمية حدوداً . ولم أتبلغ بلقمة ولم أطرح جسمى على فراش منذ . . منذ أمس الأول . فما تمالكت أن قلت :

— ضرب نار فى عينك ؟ لو كنا عسكرا فى الخنادق ، أو فى حرب الدردنيل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ماذنب الحفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت فى طريق ، وصعدت إلى مكتبى

فى الطابق الثانى فألفيت ببابه الفتاة « ريم » منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛ ولست أدرى ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشنى قليلاً مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت حجرتى فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين فى نشاط المستيقظ من نوم مريح ، فعلمت أنهم آتون الساعة من منازلهم ، وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت فى هذه القضية ، فذلك خير من لعب «الطاولة» فى النادى أو مص القصب أمام الأجزاخانة . أما أنا فانسان لا يصلح الآن لشىء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات . فأعلنت الحاضرين رغبتى فى تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريتها . وليس من الرأى أن تعود لتأتى مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يعنيهم أمر القضية من الأهالى والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق ،

وهي لا تعرف أحداً في هذا المركز ولا أهل لها به .
هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام في بيتي للصبح . فالتفتنا إليه جميعاً في شبه ذعر ؛ ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدري كيف دب فينا نحن الحاضرين نفس الشعور في نفس الوقت . حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خانق وداف إلى الحجرة ، ظهر في عينيه القلق . وكان الموقف دقيقاً . إن أي اعتراض منا معناه الريبة في سلوك حضرة المأمور ؛ ومن جهة أخرى إذا سلمناه هذا الحمل الوديع فأن الله وحده هو المنجي . فهذا المأمور قد شاعت له شائعة أنه استملح ذات يوم فلاحة دخلت عليه بشكوى ، وأراد أن يختلي بها ، فأمر عسكره وخفراءه أن يدخلوا سجن المركز ويحلقوا ذقون المساجين . فلما دخلوا أغلق عليهم الباب من الخارج وحبسهم ساعة انفرد خلالها بالمرأة . تذكرت ذلك وقلت في نفسي : إذا ساءت الأمور وتحرجت فأي عبء يوقر ضميري أنا وكيل النيابة الذي دفع بيده هذه التفاحة اليانعة إلى هذه الأنياب التي يسيل منها اللعاب ؟ ! العجيب أن الحاضرين كلهم قد أطرقوا ووجموا كمن قد أيقن وقدر أنها أكلت ومضغت وانتهى الأمر ! وأراد المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال :

أنا غرضي أنها تكون في محل أمين بين زوجتي وأولادي

ولم أجد بداً من الاذعان . وتركت المكان وانصرفت إلى منزلي . وتناولت شيئاً من الطعام على عجل . ثم أويت إلى فراشي واستغرقت في نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل . قمت عطشان فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة . وتذكرت الفتاة وتخيلتها في بيت صاحبنا فنفر من رأسي النوم . وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعي المأمور . ولكن الحوادث كالقطط إذا ناديتها رفضت المجيء وإذا طردتها جاءت تتمسح بالأقدام . ولم أجد ما أصنع . وخالجتني ريب وشكوك . وطال الليل في نظري وسمج وتمنيت طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكري بتدوين يومياتي فجمد القلم في يدي . ووقع بصري على أكوام من قضايا الجنح والمخالفات والعوارض من « إيراد » اليومين السابقين أرسلها إلى كاتب الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات . فلم آنس عندي ميلاً إلى العمل . فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل في هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء ...

فجأة خطر لي أن أرتدي ثيابي وأن أنزل إلى الطريق وأرود حول منزل المأمور . ما هذا الجنون؟ أنا أفعل ذلك ؟ وإذا (ضبطني) خفير الدرك ؟ إنه قد يعرف شخصي فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتي به ...

على أن الله لطف بي آخر الأمر فأرسل إليّ إشارة تليفونية ، طالعتها في الحال فاذا هي واقعة تافهة مما لا نقوم لمثلها بالليل :

« ... عرور قطار البضاعة نمرة ٢٠٩ خط الدلتا الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادي على الشريط . والحادثة بفعل فاعل مجهول ... الخ الخ » . وقد أشر المأمور في ذيل الاشارة بانتداب حضرة معاون الادارة للانتقال وإخطار البلك وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لي أن أقوم . ولكن كيف أضيع

هـذه الفرصة التى هبطت من السماء ؟ ليس أحب إلىّ الليلة من أن أفاق راحتى وراحة حضرة المأمور . وارتديت فى الحال ثيابى وأمرت باحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه من بوسع بابه طرقا وبخبره بانتقالى . فأطل الرجل من نافذته صائحاً :

— مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسى من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . مادامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جناية . لاحظ أنها جناية تعطيل قطار ، أخطر جناية فى الدنيا . لابد من حضورك ياحضرة المأمور

— أنا ... أنا انتدبت معاون الادارة

— لابد من حضورك شخصياً

— الليلة .. مستحيل .. أنا الليلة .. تعبان ..

— كلنا فى التعب سواء ؛ لكن الواجب يحتم علينا . . !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً فى ضيق وامتعاض ، ورأى عزيمتى واصرارى ، وخشى أن يعارضنى فى أمر متعلق بالعمل ، فأذعن وطلب إلىّ الانتظار هنيهة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبى فى السيارة وهو ينفخ من الغيظ . وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصفور . إذ على الرغم من صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فكر المأمور مشغولا هذه المرة ، فلم يفطن لغياب الشيخ ، فلقد مضى فى إطراقه برهة ثم قال :

— أى نعم ! الواجب يحتم علينا . . لكن يعنى . . مسمار ! ؟ فأغمضت عينى حتى لا ينتظر منى جوابا ، فاستطرد :

— الله يسيبه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل فى قضية القتل شاهدين لاغير ويقفل محضره ويميل علىّ : « هو القتيل أبونا والاّ أخونا ؟ قم نبل ريقنا بكاس » !

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا الكيلو ١٧ ، ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة المسمار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب ، فتناولت المسمار بين أصابعى وجعلت أفحصه ، والمأمور خلفى يقول باسماً :

— « كان العطشجى فين ، لما الوابور وقع انكسر ! » ، فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التى كانت شائعة منذ ثلاثين عاماً يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحماها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصل كسر ولا وقوع يا فندم ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت فى الحال . . .

ومضى يسرد آراءه قائلاً إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلهم من أصلاب تلك القرية التى «عزمت» القطار فى أول ظهوره وقدمت اليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالى قد دفعه الهبط أو حب الاستطلاع أن يضع هـذا المسمار على الخط الحديدى ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة ، فالأهالى فى هـذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على الحمير والجمال وبيعه للمقاولين ، فعمدت شركة سكة حديد الدلتا الانجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك حتى هـذا الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء كان هـذا هو السبب أو ذاك فأن الفاعل هنا أيضاً غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد انتهينا من الأمر بأن

وضعنا المسمار داخل « حرز » وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرفقناه بالأوراق ... إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذي هو كل بضاعتنا ، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرآى المأمور فتح المحضر في « دوار » العمدة ، فسألت عن المسافة بيننا وبينه ، فرد نائبه قائلاً :

— « فركة كعب » ياحضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تتخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر في زاوية الناحية ، وتركت المأمور « يسبخ » لنائب العمدة على « فركة » الكعب ، وانهمكت في فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختم محضري ، واذا بي أرى حركة نصب مائدة واعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر في الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة في ناحية :

— اسمع ياعمده ! البك الوكيل لايحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبدا ، ولكن لا بأس من كم زغاولة مدفونة في الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشلتت ؛ وان كان عليه كم كتكوت محمر مافي ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شيء مفيد للصحة . ولا بأس من كم بيضة مقلية في القشدة ، كفاية ، إياك ياعمدة تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته ضعيفة . إن كان عندك عسل نحل بشمعه فلا بأس . قرصين جبنه ضاني لا مانع ، طبق كمك وغريبة .. الغرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد العارفين !

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهي ولم أدر ما أصنع . ورأيت الخير في أن أسرع بالانصراف . فطويت أوراقي على عجل . ولكن عين المأمور لحظتني وأدرك غرضي . فجاءني مسرعاً يسألني :

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التي لم يوضع عليها شيء بعد ثم نظر إليّ :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم

— ولا شاهد واحد فاضل . . ؟

— ولا ربع شاهد

فتركني وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب أحد الأهالي من « حرامه » ودفعه أمامي دفعاً وأشار إليه وقال :

— شاهد مهم قوي ، عنده أقوال

فأبديت ارتيابي في قيمة كلام هذا الرجل ورغبتي في الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن المأمور ألح في الرجاء أن أصغي إلى هذا الشاهد فأن لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورقة من جديد وما كدت أبدأ في إلقاء السؤال ، حتى برز العمدة وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة . وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى الفطور . فاعتذرت بضعف صحتي وامساكي عن الأكل عادة في الصباح . فانطلق من فم العمدة قسم غليظ . وتواطأ في الحال مع المأمور على حملي من مكاني حملاً . وإذا بي أجد نفسي في صدر المائدة . فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور يأكلون وينهشون ويزدردون وقد انشغلوا بأنفسهم فلم يفطنوا حتى إلى قلة أكلي ؛ وقمت من بينهم متسللاً بعد قليل وجلست في مكاني الأول أنتظر تارة وأتصفح محضري تارة إلى أن فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على مافوق الخوان وقاموا يمسحون أيديهم في غطاء المائدة الذي لم ير وجه الصابون منذ عامين ، وأقبل عليّ المأمور يتجشأ ويقول :

— أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى

فأشرت إلى الشاهد الذى كان جاءنى به وقد نسيه فيما يظهر :

— لما نسأل الشاهد المهم !

فأجاب المأمور من فوره :

— لا مهم ولا حاجة

وتركنى واتجه إلى الفلاح وقال له :

— أنت يا ولد عندك معلومات ؟

فأجاب الفلاح :

— « لَعْ »

أى لا ، فالتفت إلىّ المأمور قائلا :

— جحش الله فى برسيمه ! لا عنده معلومات ولا يحزنون . قم بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا ! ونهضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس . ولم نكد نبلغ دار المركز حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل أشارة من المستشفى الأميرى أن المصاب « ثمر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته الآن ويمكن استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شىء ، خشية أن يعود المصاب إلى الأغماء أو سوء الحال فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشى » فقيل لنا إنه فى قاعة العمليات ، فسرنا فى الردهة الموصلة إليها ، فقابلتنا تلك الأسرة الصغيرة والمحفات التى تجرى على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الحمالين فى المحطات الكبرى ، ورأينا تلك المباخر وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار ، والممرضون فى هرج ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التى تحمل أجساماً فى طريق الفناء ، يدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفت قليلاً وقد شرد خاطرى ، وخامرنى إحساس من يقف فى المحطة بين القطُر . نعم ، أو لست الساعة فى تلك المحطة التى يسافر منها المريض إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت العسكرى المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات فى ثيابهن السود و « طرحهن » الزرق وأصواتهن التى يقطعها عويل القلق . فعلمت أنه سيأتى إليهن بجثة بعد قليل . فانهم فى كل يوم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو الناب الأزرق فى لون « النيلة » والمخاب المعفر بالطين والتراب

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلواً فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف ، فنظرت فى ذلك ، فقال لى الرجل إن هذا خرج من بطن امرأة هى الساعة فوق المشرحة تحت البنج ، فجمدت فى موقفى . وبادر المأمور وطلب باسمى مقابلة الحكيمباشى فى الحال . فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات ، فتجلدت ودخلت وخلفى من كان معى ، فقابلنى الحكيمباشى بابتسامة وهو مازال منحنيا فى معطفه الأبيض على شىء فوق المشرحة وقد شمر عن ذراعيه وفى يده أداة كأنها « السكاشة » وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان فى ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت الى الذى بين يديه فاذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقا طويلا من الصدر حتى أسفل البطن ، وإذا « السكاشة » فى يده تجمع الجلد الذى انشق وتخيطه بشىء كأنه المسامير الصغيرة ، والطبيب يفعل ذلك فى سرعة غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحا ضاحكا كأنه « حاو » يفاخر بخفة يده ومهارة صنعته . ونظرت

فى وجه البنت الشاحب وهى كالمينة ، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير فى صف طويل كأنها جلدة حذاء فى يد الاسكافى ؛ فشعرت بدوار فى رأسى وخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهى فترك المريضة وحدق فى وجهى قلقاً . فأسرعت وخرجت من القاعة وأنا أقول له فى صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى :

— منتظرك يا دكتور بعد العملية

وسألنى المأمور عما بى فلم أستطع التعليل . إنى قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامى وبطوناً تبقر فلم أتأثر . ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أترانى شديد التأثر لمرآى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم انها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة العمليات فبلغت خياشيمى إذ دنوت من جسم الفتاة ؟

وأعادنى الهواء الطلق خارج القاعة الى نشاطى وجلسنا ننتظر فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب قهوة طلبها لنا « الباشتمرجى » . الى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحبا الى « عنبر » المصاب

وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذ لم تكف «العنابر» لأيواء هذا القدر من التعساء . ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب « الزعابيط » الزرقاء يتناولون فى نهم حساءهم فى أوان صغيرة من « الألومنيوم » ، وينظرون الينا ومعنا الحكيمباشى كما ينظر القردة فى حديقة الحيوانات الى الحراس مع كبار الزائرين

ووصلنا الى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً لا يتحرك . ونزع الحكيمباشى من رأس السرير تلك الرقعة التى يدون فيها تطورات مرضه وقرأ علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت :

— الفرض ، عكننا استجوابه حالاً ؟

فأجاب الطبيب فى صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلى

ثم دنا من المصاب وناداه فى هدوء ففتح قليلاً عينين ذهب بريقهما وكأنهما لا يريان شيئا ولا يثبتان على شىء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . فأعدت عليه السؤال ففتح شفتيه ولم يقل شيئاً . فألححت عليه فبذل جهدا ظاهرا وقال كلمة واحدة :

— ريم !

فدهشت قليلاً . والتفت عنة ويسره فوجدت المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأنى فى الاهتمام بالأمر والعجب له . فنظرت فى وجه المصاب وقلت :

— وضح غرضك يا قمر !

فلم يجب

— قصدك أن ريم هى نفسها ...

فلم يبد حراكا ...

— يا قمر ، يا علوان . تكلم . لا بد أن تتكلم . كلمة واحدة . الضارب ؟ من الضارب ؟

ولكننا نطالب المستحيل . فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه عرقا . فجذبنى الحكيمباشى من يدى بعيدا وقال :

— كفاية !

فنظرت الى المأمور يائساً :

— كفاية ؟!

وهل ظفرنا نحن بشىء ؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح منه الآن . إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد ، ليته لم يلفظها ...

(يتبع) توفيق الحكيم